الفصل السادس عشر:

فلسطين إبان حروب الفرنجة

د. نهال خضر البرغى

كأن الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش، أحيا في الغرب الإستعمارى، بل في العالم أجمع، ذكريات حروب الفرنجة سيئة الصيت. فكما أضفى الغرب على هذه الحروب صفة " الصليبية "، فإن بوش الابن ألبس حروبه ضد ما أسماه " الإرهاب "، صفة " الصليبية "، ولم يعفه تنصله أو اعتذاره اللاحق عن هذه السقطة.

فما هي " الحروب الصليبية " ؟ ما ملابساتها؟ وما موقع فلسطين في هذه الحروب؟

" الحروب الصليبية "، مصطلح استحدثه المؤرخون، ويقصد به الحملات الأوروبية " حملات الفرنجة " على المشرق العربي، ابتداءً من سنة ١٠٩٥م وحتى ١٢٩١م، أو حتى شطر كبير من القرن الخامس عشر، حسب آراء أخرى [١].

وإن استمرت هذه الحروب ما يزيد على القرنين من الزمان، فإن ثمة ظروف وداوفع مهدت لهذه الحروب.

التأسيس للحملات:

" هكذا أراد الله "! هذه هي صيحة الحرب الشهيرة، التي أطلقها البابا أوربان الثانى، في ٢٧ تشرين الثانى / نوفمبر ١٠٩٥، في مؤتمر بكليرمون، جنوبى فرنسا، داعياً إلى تخليص " القبر المقدس "، من أيدى " البرابرة والكفار "، فاتحا بذلك درب هجمات استعمارية إستيطانية، مستظلة بالدين المسيحى.

الغريب أن تُشن الحرب بإسم الدين المسيحى، فمن يمعن النظر في الأناجيل المسيحية يجد إتجاهاً سلمياً واضحاً. حيث جاء في " إنجيل متى "، على لسان المسيح؛ " لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون ". وجاء أيضاً " سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً ".

كما نهى عن القتل " قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ". ورد على لسان بولس الرسول: " لا تجاوزوا أحداً عن شر بشر، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس، لا تنتقموا لأنفسكم، أيها الأحباء، بل أعطوا مكاناً للغضب، لا يغلبك الشر، بل إغلب الشر بالخير ".

كان سان باسيل القبادوقي، أعظم مشرِّعى الكنيسة البيزنطية، يعتبر أن الشهيد هو الذي يموت متسلحاً بالإيمان فحسب، وليس الذي يقتل في الحرب ضد الكفار، بل إنه كان يوصى الجندى الذي قتل عدوه في الحرب، بأن يكفِّر عن ذنبه بالإبتعاد عن الجماعة المقدسة ثلاث سنوات. ولعل هذا هو السبب في الطابع الدفاعى الغالب للحروب البيزنطية،

ولميل الأباطرة البيزنطيين إلى الوسائل السلمية [٢].

إذا كانت تعاليم السيد المسيح تنبئ بالسماحة والسلام، فكيف تحولت الكنيسة إلى داعية للحرب والدمار والقتل؟!.

يعد الامبراطور البيزنطى، هرقل أول من استغل الروح الدينية حيث أعلن حرباً صليبية ضد أعداء الدولة، وأعداء الكنيسة، بين عامى ٦١٠ - ٦٤١ م، حارب خلالها الفرس وطردهم من البلاد التي احتلوها في آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ومصر، واستعاد " الصليب المقدس " وبيت المقدس منهم، وكانت الكنيسة تساعده وتسانده، لذلك حمل لقب " أول الصليبيين " [٣].

توالت بعد ذلك، " الحروب الصليبية " ضد المخالفين، وضد معتنقى الديانات الأخرى خاصة الإسلام، كالحروب التي دارت رحاها بين المسلمين وأعدائهم في شبه الجزيرة الإيبرية، أسهمت فيها البابوية أكبر إسهام [٤]. وفي كانون الأول / ديسمبر ٨٥٣م، طلب البابا ليو الرابع مساعد الجيوش الفرنجية ضد المسلمين الذين هاجموا روما، ووعدهم بأن من يموت في المعارك، سوف يكافأ على ذلك في السماء. وكانت هذه خطوة أكثر تقدماً في سبيل صياغة إيديولجية الحرب المقدسة، أوجدتها الظروف التاريخية الموضوعية. فالبابوية لم تكن متورطة، بشكل مباشر، في تنظيم الجيوش، وتوجيهها للحرب، حتى القرن التاسع، عندما واجهت مشكلة الدفاع عن أملاكها، في وسط أوروبا، وعندما حدث ذلك، بدأت محاولات البابوية لتبرير الحرب على أُسس دينية من ناحية، وربطها بمفهوم الخلاص المسيحى، من ناحية أُخرى [٥].

برزت الفكرة مرة أخرى، في عام ٨٧٨ م، على يد البابا يوحنا الثامن
(٨٧٢ - ٨٨٢ م) الذي طلب في سنة ٨٧٦م، مساعدة شارل الأصلع ضد المسلمين، وعبر عن خوفه من أنه بدون هذه المساعدة، قد تتعرض الديانة المسيحية، والمجد الإمبراطورى للخطر [٦].

في سنة ١٠٦٣ م، منح البابا، إسكندر الثانى، المحاربين المسيحيين، الذين يقاتلون مسلمى الأندلس غفراناً، وإعفاءً من التوبة، واعتبر قتالهم ضد المسلمين تكفيراً عن خطاياهم. يعد هذا جزءاً من سياسة تشجيع الحرب ضد المسلمين (حرب الإسترداد). وفي خطابه الموجه إلى أسقف ناريون نجد البابا يستثنى ذبح المسلمين من التحريم الكنسى العام للقتل، مما يكشف بوضوح، مساندة هذا البابا للحرب ضد المسلمين [٧].

كان أوربان الثانى - صاحب المبادرة الأولى - قد دعا لحرب الفرنجة، في مجمع " بياسنزا - بليزانس " بإيطاليا، عام ١٠٩٥ م حين دعم أوربان، مطلب رسل البابا إلى المجمع المسكونى، دون أن يكون مقتنعاً بأن " الصليبية " يمكن أن تحرز هدفاً سريعاً، وسهلاً. ما بين آذار / مارس، وتشرين الثانى / نوفمبر قام البابا أُوربان الثانى بجولة في أوروبا، لتأمين الدعم لهذه الحرب، والدعوة لها [٨].

في مؤتمر في أو فريني، بكليرمون، استهل أُوربان الثانى خطبته، باستثارة المشاعر الدينية لدى الحضور، وإلهاب حماستهم، محرضاً إياهم على المسلمين، وموجهاً الإتهامات المبالغ فيها: " يا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار!... لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة

القسطنطينية أنباء محزنة، تعلن أن جنساً لعيناً، أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد،، بلاد المسيحيين، وخرّبها، بما نشره فيها من أعمال السلب، وبالحرائق، ولقد ساقوا الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر، بعد أن عذبوهم، أشنع التعذيب، وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان، وانتزعوا منها أقاليم، بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع إجتيازها، في شهرين كاملين. على من، إذن، تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم؟!.

وإذ يذكرهم البابا أُوربان الثانى بأسلافهم، أمثال شارلمان، وأمجاده وعظمته، فإنه يشير إلى القدس، بوضوح، داعياً للهجرة إليها، والإستيطان فيها، ومبشراً بالغفران: ".. فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس، ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أُمم بخسة، وغيره من الأماكن المقدسة، التي لوثت ودنست.. لا تدعو شيئاً يقعد بكم من أملاككم، أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وقلل الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضهم بعضاً ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحرب الداخلية ". ويسترسل البابا أوربان الثانى: "... إتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض التي لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم، أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة، راغبين

متحمسين، تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا، لا يفنى في ملكوت السماوات " [٩].

هنا علت أصوات الجموع المتحمسة، قائلة: " تلك إرادة الله "!، وردد أوربان هذا النداء، ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم في الحرب، كما أمر الذاهبين إلى الحرب " بأن يضعوا علامة الصليب على جباههم، أو صدورهم[١٠].

على مدى تسعة أشهر، بعد هذا الخطاب، كان البابا ينتقل، بنشاط، عبر مدن أوروبا، داعياً للحملة " الصليبية " وقد أخذ على عاتقه أن يحل جميع " الصليبيين " من القيود التي تعوقهم عن الإنضمام إلى المقاتلين، فحرر رقيق الأرض، ومعهم التابع الإقطاعى، طوال مدة الحرب، مما عليه من الولاء لسيده، ومنح جميع " الصليبيين " مزية المحاكمة أمام المحاكم الكنسية، لا أمام المحاكم الإقطاعية، وضمن لهم مدة غيابهم، حماية الكنيسة لأملاكهم. وهكذا نجح البابا أُوربان الثانى في أن يوحِّد أوروبا، تحت نفوذ البابوية في الكنيسة الكاثوليكية [١١].

رغم أن السبب المعلن وراء الدعوة للحملات " الصليبية " على المشرق العربي كان " تأمين طرق الحج للمسيحيين، بعد تعرضهم للمذابح من قبل المسلمين " [*] فإنه، دون أدنى شك، هناك الكثير من الأسباب المهمة التي شكلت الدافع الرئيسى لإستجابة الأوروبيين " للحرب المقدسة "، كما أطلق عليها، وأهم هذه الأسباب والدوافع:

أولاً: الدوافع الإقتصادية:

١- أ ـماع الإقطاعيين:

تبلور النظام الإقطاعى، في أوروبا الغربية، في القرن الحادى عشر الميلادي، وتطلع الإقطاعيون لزيادة أملاكهم ونفوذهم من خلال المشرق العربي، في تلك الأثناء، كانت فرنسا هي القطر الإقطاعى الوحيد في أوروبا، ولعل هذا هو السبب في إختيار البابا أوربان لفرنسا من أجل الدعوة لحملات الفرنجة [١٢].

٢ - للإفلات من الضائقة الإقتصادية:

تعتبر السنوات العشر التي سبقت الدعوة للحملة الصليبية الأولى، سنة ١٠٩٥ م، سنوات صعبة، على سكان أوروبا، ولا سيما في شمال فرنسا، وغرب ألمانيا، حيث شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة، وانتشار وباء غامض، حصد السكان في كل مدينة مر بها، ولعل من الطبيعى أن يكون رد الفعل الجماهيرى، التعلق بالدين، ومحاولة التكفير عن الذنوب، والإلتفاف حول النساك بحثاً عن الخلاص، ولذا راقت الدعوة التي وجهها البابا لشن حملة " صليبية " ضد المسلمين، للفلاحين الأوروبيين الفقراء، الذين تشبعوا، منذ زمن طويل، بأفكار الوعَّاظ الجوالين، وخاصة في كليرمون [١٣].

كما أن معدلات تحول الفلاح الحر في أوروبا إلى قن (عبد للأرض)، أخذت تتصاعد، باطراد ولم تقف الكنيسة ضدها، بل أفادت منها، بصفتها أكبر ملاّك الأرض الزراعية في الغرب الأوروبي، حتى ذلك الحين. فقد كانت الهبات التي أغدقها الحكام والنبلاء على الكنائس والأديرة قد جعلتها

تمتلك مساحات زراعية شاسعة، ومن ثم لا بد من أن توفر لها من يزرعونها، وقد كانت عميلة تحويل الفلاحين إلى أقنان، تحت ذريعة " حب الرب "، أكثر الوسائل فعالية [١٤].

في الوقت الذي كان البابا يوجه خطابه إلى الفرسان، من أبناء الطبقة الإقطاعية. لم يخطر بباله أن تسارع الجماهير إلى الخروج في الحملة التي ارادها، لتحقيق أهدافه السياسية في الداخل والخارج، وأدرك البابا بأن خروج العامة سيشكل عائقاً، فبذل جهداً لمنعهم. ومما يدل على ذلك خطابين، أولهما خطاب موجه إلى أتباعه، في بولوني، بتاريخ ١٠٩٦/٩/١٥ م، فيه: " ولكننا لا نسمح للرهبان، أو القساوسة بالذهاب، دون إذن.. كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب، دون نصيحة، وبغير علم القساوسة المسبق، كما ينبغى عدم ترك الشباب المتزوجين حديثاً يذهبون في رحلة طويلة على هذا النحو دون موافقة زوجاتهم ".. وقرر البابا، في خطابه الثاني، ١٠٩٦/١٠/٧م، بأن العامة الراغبين في الذهاب إلى القدس أشخاص غير مناسبين لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب في هذه الحملة، لأنهم قد يستطيعون كبح وحشية المسلمين، ويعيدون للمسيحيين حريتهم.. " [١٥].

٣ - جشع التجار:

تشمل تجار جنوا، والبندقية، وبيزا، والمدن التجارية الفرنسية، والكاتالانية [١٦] فقد بنت البندقية أسطولها القوى، في منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وفي الفترة نفسها، تقريباً كانت جنوا، وبيزا، قد بدأتا التجارة، على طول شواطئ البحر المتوسط، مع مارسيليا،

وناريون، وبرشلونه وأخذت جنوا، وبيزا زمام المبادرة، في الهجوم على أساطيل المسلمين [١٧]، وقد حاولت إيطاليا ان تفوز بالثروة الطائلة التي نعم بها العالم الإسلامى، وأن ترث دور المسلمين في تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم، وجاءت الحروب " الصليبية " فرصة للتوسع الأوروبى، خاصة مع ما تتمتع به فلسطين من موقع متميز بين القارات الثلاث. فقامت بتقديم المساعدة لحملات الفرنجة على المشرق العربي، وأمدتهم بالعتاد والأسلحة مقابل عدة امتيازات، فقد اشترط الجنويون:

أ - أن يحصلوا على ثلث كل مدينة يتم الإستيلاء عليها بمعونتهم.

ب - أن يكون لهم شارعاً في كل مدينة أخرى لتجارتهم.

ج - أن يحصلوا على ثلث الغنائم المنقولة. فكان لهم ثلث قيسارية، وأرسوف وعكا. فيها اشترط البنادقة:

أ - ثلث المدن المحتلة، ليكون لهم حي تجارى، معفى من الجمارك.

ب - عدد من الإمتيازات الأُخرى، في مدن المملكة [١٨].

٤ - أطماع القادة العسكريين في الإستيلاء على مناطق جديدة، وأرباب الخيال البعيد، وعشاق المغامرات بالإضافة إلى المجرمين والخطأة، الذين نشدوا الغفران، بالحج إلى الأرض المقدسة التي وطئتها قدم السيد المسيح[١٩].

ثانياً: الدوافع السياسية:

وتشمل تفرق المسلمين، والضعف السياسي، ونشأة مصالح مختلفة ومشتركة عربية - أوروبية فحتى القرن الحادى عشر الميلادي، كانت

أوروبا، مجرد منطقة ريفية متخلفة، مقارنة ببيزنطة، والعالم العربي الإسلامى. مع بداية القرن الحادى عشر، بدأت بيزنطة تعانى مظاهر التآكل البطيء والضعف الناجم عن الصراع الداخلى، والهزيمة الفادحة على يد المسلمين في معركة ما نزكرت (أو ملاذكرد) سنة ١٠٧١ م.

على الرغم من حضارة العالم العربي الإسلامى، وإمكاناته العسكرية، والبشرية، وثرواته الأسطورية، فإنه كان يعاني التشرذم، والضعف السياسي. ففي النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، توزع المسلمون في المنطقة العربية في ولاءاتهم السياسية بين الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، وبسبب النزاع والتخاصم بين الخلافتين، فإن كل مدينة كبيرة في بلاد الشام، وقعت تحت حكم حاكم عربى، أو من الأتراك السلاجقة، وسببت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة عداءً سياسياً وعسكرياً، مما أدى إلى تنافر هذه القوى، وعدم توحدها في مواجهة الغزو الصليبي [٢٠].

عشية وصول حملات الفرنجة إلى المنطقة، كانت إمارة حلب تحت حكم رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣ م)، الموالى للفاطميين وكان العداء مستحكماً بينه وبين إمارة دمشق، التي يحكمها دقاق، الموالى للخلافة العباسية (١٠٩٥ - ١١٠٤ م). فيما كانت إمارة شيزر، على نهر العاصى، قرب حماة، تحت حكم بنى منقذ، أما طرابلس فوقعت تحت حكم بنى عمار، الشيعة.

ظلت بيت المقدس بأيدى السلاجقة، حتى استعادها الفاطميون، سنة

١٠٩٨ م، أثناء وجود الفرنجة في أنطاكية، ولكن الفاطميين لم يلبثوا أن فقدوا القدس، بعد مذبحة مرّوعة، إرتكبها الفرنجة الأوائل، بمجرد أن استولوا على القدس، وكانت مدن الشمال في آسيا الصغرى، وأعالي بلاد الشام تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس بطريقة تبادلية [٢١].

نتيجة لهذه الظروف السياسية، نسجت تحالفات عدة متداخلة، فنشأ محور الدولة البيزنطية - الدولة الأموية بالأندلس، كما نشأ محور الدولة العباسية - دولة شارلمان، وظهرت علاقات دبلوماسية بين طرفي كل محور، لم تكن معروفة، منذ ظهور الإسلام، وعندما ظهرت الخلافة الفاطمية المعادية للخلافة الأموية بالأندلس، سرى مفعول المحور الأندلسى – البيزنطي ضدها واتخذ شكل ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية بالأندلس. هكذا لم يعد العامل الدينى، المتحكم في الصراع، بل نشأت مصالح مختلفة ومشتركة عربية - أوروبية، أصبحت العامل الرئيسى المحرك للصراع بين العرب وأوروبا [٢٢].

ثالثاً: الدافع الدينى:

لطالما سعى البابا إلى توحيد كنيستى روما والقسطنطينية، تحت زعامة بابا روما، ومد النفوذ البابوي، لذا فقد استغل أزمة الإمبراطورية البيزنطية، كما تذرع البابا بإضطهاد المسيحيين المشارقة [*]، والحجاج المسيحين، وما أشبه هذا الزعم بالدعاية السياسية الغربية الحديثة [٢٣].

ومن الأهمية بمكان ان نثبت هنا وجهة نظر مؤرخى البروتستانت في الحرب " الصليبية "، فقد إعتبروها بدعة، إستغل فيها البابوات الكاثوليك

الأوهام، ليوسعوا سلطانهم [٢٤].

مع تعدد الدوافع، للقيام بحروب الفرنجة، وتدخلها، كانت فلسطين، ولا تزال، البقعة التي تجمع هذه الأهداف، فهي الأرض المقدسة في الديانات السماوية الثلاث، وهى ممر التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وأرضها مغرية بخيراتها التي يعرفها الحجاج الغربيون جيداً، فاعتبرت أرض: " اللبن والعسل "، وكان لدى الأوروبيين اعتقاد بأن فلسطين هي مركز العالم.

لذا، فإنه من السهل الانتقال في غزو فلسطين من حجة الدين إلى التجارة والأرض، ومن التجارة إلى الأرض والدين، وخلط الأوراق جميعاً[٢٥].

الذريعة:

رغم كثرة الدوافع الغربية لقيام الأوروبيين بالحروب " الصليبية "، فإنه كان لابد من توفر ذريعة للبدء بتنفيذ مخططهم، وقد تمثلت هذه الذريعة في الخطاب الذي وجهه إليكسيوس كومنينس، إمبراطور بيزنطة إلى البابا أوربان الثانى، وفيه طلب المساعدة، إثر هزيمته في معركة ملاذكرد الشهيرة، سنة ١٠٧١م، التي دارت بين البزنطيين، بقيام رومانوس ديوجيسنس، والسلاجقة، بقيادة ألب أرسلان، وانتهت بانتصار المسلمين، وأسر رومانوس.

خشي الامبراطور - البيزنطى، إليكسيوس كومنينوس، من تقدم السلاجقة نحو القسطنطينية، فأرسل يستنجد بالبابا، وجاء في خطابه:

".... لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس، وبلاد الإغريق... لم يبق، الآن، تقريباً سوى القسطنطينية، لذا: أستحلفك بمحبة الله، وباسم جميع الجنود المسيحيين الإغريق، أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يد العون والمساعدة، وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين، من كبير وصغير، فضلاً عن العامة، مما يتسنى جمعهم من بلادك ". تابع أنه يفضل " أن تكون القسطنطينية في حوزتكم، وليست في قبضة الأتراك، لأن فيها أثمن آثار السيد [المسيح] [٢٦].

استخدم البابا أُوربان الثانى هذا الخطاب، لحث المسيحيين على الحرب ضد المسلمين، في كل من مجمعى بيلزانس، وكليرمون وكان هذا أحد أسباب دخول الامبراطور إليكسوس - كومينوس مع البابا أُوربان الثانى في مفاوضات، حيث أراد الأول مساعدة البابا في تجنيد المرتزقة من غرب أوروبا، فيما تطلع الثانى إلى انتهاز الفرصة، لكى يعيد توحيد كنيسة القسطنطينية، وكنيسة روما، تحت الزعامة البابوية [٢٧].

الحملات:

تم تحديد ١٠٩٦/٨/١٥ م، موعداً لرحيل الحملة، على أن يكون مكان اللقاء في مدينة قسطنطينية الحصينة، على ضفاف البسفور. ثم عين الأسقف أديمار دي مونتي، أسقف لوبوي، قائداً للحملة، أو مندوباً عن البابا، الذي أراد توضيح أن الحملة يجب أن تكون تحت السيطرة البابوية.

في ربيع سنة ١٠٩٦ م، توجه الفلاحون صوب الشرق، بعد أن تجمعوا حول بطرس الناسك، وكانت أول فرقة قد تشكلت بقيادة والتر

المفلس، وأعملت هذه الحملة السلب، والنهب، وإشعال الحرائق في المناطق التي مرت بها، كبلغاريا، مدينة " سملين "، على حدود المجر مع الإمبراطورية البيزنطية، حتى وصلوا إلى القسطنطينية، فأخذ يعيثون فيها فساداً، ورد الامبراطور كومنينوس بنقلهم إلى المضايق في آسيا الصغرى، وهناك ارتكبوا المذابح ضد السكان المسيحيين، وبسبب الطمع والفوضى، وقع الفرنجة في شباك كمين أعده الأتراك السلاجقة، وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس، في حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه، والهرب إلى القسطنطينية [٢٨].

obeikandl.com

الحملة الأولى:

امتدت من ٤٩٠ - ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٦ - ١٠٩٩ م، سميت " حملة الأمراء " وانتهت بسقوط البلاد المقدسة، وإنشاء مملكة وإمارات لا تينية فيها. في أواخر صيف ١٠٩٦ م كانت جيوش الفرسان، متأهبة للرحيل صوب فلسطين، وتكونت جيوش عدة، فتولى جودفرى البوبونى في قيادة الجيش، الذي جمعه من اللورين، شمال فرنسا، والألمان، واشترك معه أخوه بلدوين. وتولى روبرت، دوق نورماندى، قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا، ونورماندى، وبعض مناطق الشمال، فضلاً عن الكثير من الفرسان الإنجليز، من أتباع أخيه الملك الإنجليزى، وليم روفوس. أما الجيش الثالث، فكان تحت قيادة ريمون الرابع، كونت تولوز، وقد تألف جيشه من فرسان جنوب فرنسا، وكان في صحبته أديمار، أسقف لوبوي والمندوب البابوى في هذه الحملة الجيش الرابع كان جيش " هيو "، كونت فرماندوا، وأخيراً جيش بوهيموند النورمانى الذي تألف من المقاتلين النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا واعتذر الامبراطور البيزنطى، إليكسيوس كومنينوس، عن قبول العرض بقيادة الحملة ولكنه زود الجيش " الصليبى " بعدد من المرشدين وأرسل معهم بعض ضباطه، وظل يرسل لهم المؤن والإمتدادات، عن البحر والبر [٢٩].

حتى ربيع ١٠٧٩ م، استجاب لنداء البابا ١٥٠.٠٠٠ من الإفرنج والنورمانديين، عرفت حملتهم بـ " حملة المقدسة " واخترقت طرق آسيا الصغرى، فاحتلت نيقيا، قاعدة السلاجقة، في شهر حزيران / يونيه ١٠٩٧ م، ثم دوريلايوم، وما أن عبر قادة الحملة جبال طوروس، حتى وقع

الخلاف بينهم، وأخذ كل منهم يضع خططه الخاصة للتوسع المحلي، حيث تحول بلدوين شرقاً، ودخل منطقة، أهلها من النصارى، ثم احتل الرها، وهي تحت حكم الأردن في الأوائل سنة ١٠٩٨ م، وأنشأ " ولاية الرها ". فيما تحول تانكرد، أحد القادة النورمانديين القادمين من جنوبي إيطاليا وصقلية، غرباً، ودخل كيليكيا وسكانها من الأرمن، بينهم جماعة من اليونان، وقد احتل مدينة طرطوس، وسائر نواحيها [٣٠].

ولَّدت المنازعات المحلية، والتحاسد الأخوي، ومشكلات الولاية السلالية، حالة مزمنة من الإضطرابات. أما أهل البلاد فتفرقوا، بعد أن تفرغت فرق عدة من الإسلام، فاعتصم الدروز في جنوبي لبنان، واستوطن النصيرية في جبال سورية الشمالية، واستقر الإسماعلية، ثم الحشاشون، إلى الشرق من مواطن النصيرية [٣١].

بعد حصار طويل، دام حوالي تسعة شهور من ٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٠٩٧ م، وحتى ٣ حزيران / يونيو١٠٩٨ م، سقطت أنطاكية في أيدى الفرنجة، بقيادة بوهيمند، إثر خيانة فيروز، القائد الأرمنى، الذي كان يتولى الدفاع عن أحد أبراج أنطاكية. وهكذا إستطاع الفرنجة إنشاء ثانى إمارة " صيلبية " في المشرق، وهى إمارة أنطاكية [٣٢].

تابعت الحملة السير نحو فلسطين فاحتلت عكا، وحيفاً، وقيسارية، ثم أرسوف، وكان الفرنجة ينهبون كل ما في طريقهم، دون أي مقاومة، بل إن حاكم عكا قدم لهم الهدايا والرشى من المؤن، كما جدد الفاطميون عرضهم السابق، بتقاسم الأرض الشامية فيها بينهم، بينما كان الفرنجة لا يزالون عند طرابلس، ولكنهم لم يلقوا رداً.

وصل الفرنجة الرملة، في ٣ حزيران / يونيو ١٠٩٩ م ولم يجدوا فيها أحداً، فقد فر سكانها، دون أي دفاع، لأنه لم تصلهم أي معونة من البحر، فأعلنت الرملة أبرشية، وتولاها أسقف من النورماند، عرف بأسقف الله(٣٣).

حاصر الفرنجة القدس، مدة أربعين يوماً، من ٧ حزيران / يونيو - ١٥ تموز / يوليو ١٠٩٩ م، في حين بذل الوالي الفاطر افتخار الدولة أقصى جهد في الدفاع عنها، ولم يتلق أيه نجدة، في تلك الأثناء، بينما رست في مرفأ يافا ست سفن جنوية وإنكليزية، رفدت الفرنجة بالمؤن والسلاح، فدخلوا المدينة في ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز يوليو ١٠٩٩ م، وأقاموا فيها مذبحة ضد المسلمين قدر عدد ضحاياها بحوالي سبعين ألفاً، ويُذكر أن دماء المسلمين وصلت حتى الكعوب، في المسجد الأقصى، كما أحرق الفرنجة اليهود في كنيسهم (٣٤).

توالي سقوط المدن العربية في أيدى الفرنجة، فسقطت جبيل، في سنة ١١٠٤ م، وطرابلس، سنة ١١٠٩، مرفأ صور، سنة ١١٢٤ م.

هكذا انتهت الحملة الصليبية الأُولى بتكوين إمارات صليبية، تتبع مملكه القدس، التي بلغت أقصى قوتها، واتساعها، أواخر حكم بغدوين الثانى، ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م، حين امتدت حدودها من بيروت في الشمال إلى العريش في الجنوب، وأيلة، على خليج العقبة، وامتدت من الساحل حتى هضاب شرقي الأردن وأضحت محاطة بسلسلة من الحصون العسكرية التجارية على أطرافها (٣٥).

الحملة الثانية:

بدأت، سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م، وانتهت سنة ١١٤٩ م، وقام بها كونراد الثالث، ملك ألمانيا، ولويس السابع، ملك فرنسا، وانتهت بحصار دمشق، دون جدوى [٣٦].

قام أتابك زنكي (١١٢٧ - ١١٤٦ م)، أمير حلب والموصل، بضرب حصار حول الرها، سنة ١١٤٤م، استمر أربعة أسابيع، وانتهى بإنتزاعها من يد جوسلين الثانى. ويعد سقوطها نذيراً بتحول مجرى الحوادث في مصلحة المسلمين، اما وقع الخبر في أوروبا، فكان باعثاً على تجهيز الحملة الثانية [٣٧].

وتمت صيغة المبرر، للحملة الثانية، على أساس أن الأرض التي شهدت قصة السيد المسيح، صارت بأيدى المسيحيين حقاً، بيد أنها تحتاج إلى قوات عسكرية، للدفاع عنها، وقد أكد البابا أجينوس الثالث هذا الأمر سنة ١١٤٥ م، وترددت أصداء كلماته في الخطابات البابوية اللاحقة [٣٨]

نتيجة لذلك، عقد مؤتمر في عكا، في ٢٤ حزيران / يونيو ١١٤٨ م، ضم الملوك الثلاثة، الفرنسي، والألماني وملك بيت المقدس، وتقرر في هذا المؤتمر مهاجمة دمشق، فزحفت الجموع: " الصليبية " إلى المدينة، في خمسين ألف مقاتل، وعلى رأسها الملوك الثلاثة. وشرعت في حصار المدينة، في ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ/٢٤تموز/ يوليو ١١٤٨ م، الحصار الذي استمر خمسة أيام متصلة وانتهى بفشل الفرنجة في الإستيلاء على دمشق. ورغبة من بارونات القدس في إنقاذ سمعة الحملة، اقترحوا مهاجمة عسقلان [٣٩].

استغل بغدوين الثالث، وقوع مصر أسيرة الحرب الأهلية، ١١٥٠ م، مما أضعف نظام الحكم فيها إلى درجة العجز عن تقديم أية معونة لعسقلان. فضرب حصاراً حول المدينة، في مطلع ١١٥٣ م، استمر شهوراً، وانتهى بالاستيلاء عليها في جمادى الأولى ٥٤٨ هـ - آب / أغسطس ١١٥٣ م [٤٠].

ظهر صلاح الدين اليوبي على الساحة السياسية، عام ١١٦٤م، حين رافق عمه في حملته على مصر بعد تردد وتمنع، فقد كان ينزع إلى العلوم الدينية، أكثر من الشؤون العسكرية. على أن هذه الرحلة كانت طليعة اتجاه جديد في حياته، يرمى إلى السعى وراء ثلاثة أهداف، هي:

١ - إحلال التعليم السني مكان التعليم الشيعي في مصر.

٢ - توحيد مصر وسورية، تحت سلطة واحدة.

٣ - مواصلة الجهاد ضد الإفرنج.

عام ١١٧١ م، عمد صلاح الدين، حين كان وزيراً، والخليفة العاضد مسجًّى على فراش الموت، إلى جعل اسم الخليفة العباسي المعاصر " المستضئ "، في صلاة الجمعة، مكان العاضد، وعلى هذه الصورة كان ختام الخلافة الفاطمية، وبذلك حقق هدفه الأول.

أما الهدف الثانى، فتحقق سنة ١١٧٤م، عندما توفي نور الدين زنكي، حاكم سورية، إذ تمكن صلاح الدين، بعد بضعة إشتباكات محدودة من انتزاع سورية من إبن نور الدين، إسماعيل، وهو، بعد في الحادية عشرة من عمره. وإنضمت كلٌ من القيروان والحجاز إليها لتصبحان

جزءاً من الدولة السورية المصرية الناشئة. ثم ألحق توران شاه، شقيق صلاح الدين الأكبر، بهذه الدولة، النوبة واليمن. وفي سنة ١١٧٥ م أسند الخليفة العباسي إلى صلاح الدين، بناءً على طلبه الخاص، السلطة على جميع هذه المناطق. وكان إلحاق العراق الأعلى، بإستثناء الموصل، مما استكمل الوضع الجغرافي لهذه السلطنة[٤١].

وبذلك تمت محاصرة الإفرنج، وتمكن صلاح الدين من سحقهم.

بعد حصار دام ستة أيام، سقطت طبريا، ثم تحول جيش المسلمين نحو حطين، في جوار طبرية، حيث نشبت المعركة، في الثالث والرابع من تموز / يوليو سنة ١١٨٧ م، وتصدر موكب الأسرى، ملك القدس بذاته، غي دي لوسينيان. وبعد حصار دام أسبوعاً واحداً، استثلمت القدس، في الثاني من تشرين الأول / اكتوبر واتجهت موجة الفتح، بعد القدس، نحو الحصون الباقية، فجرفت في طريقها الشوبك والكرك إلى الجنوب، وقلعة كوكب، والشقيف، وصهيون، إلى الشمال، ثم سقطت عسقلان، وعكا، وصفد، وطرطوس، وجبلة واللاذقية جميعها، قبل سنة ١١٨٩ م، ولم يبق في يد الإفرنج إلا صور، وطرابلس، وأنطاكية، وبعض المدن والحصون الصغيرة[٤٢].

الحملة الثالثة:

امتدت من سنة ٥٨٨/٥٨٥ هـ - ١١٩٢/١١٨٩ م، وهى " حملة الملوك "، التي انتهت بالاستيلاء على عكا، وبعض المدن الساحلية من صلاح الدين، إلا أن بيت المقدس ظل بيد المسلمين [٤٣].

أثار خروج المدينة المقدسة من يد الصليبيين أوروبا، مما دفعها إلى إعداد
" حملة صليبية ثالثة "، بدأها كونراد مونتفرات، حين بعث مع جوسياس، رئيس أساقفة صور، لوحة كبيرة، جرى الطواف بها في أوروبا، تمثل القبر المقدس وقد داسته خيول المسلمين. نتيجة لذلك حشدت أكبر الحملات الصليبية بقيادة فردريك باربا روسا، ملك ألمانيا، فيليب أوغسطس، ملك فرنسا، ريكاردوس الأول، ملك إنكلتر، والملقب بقلب الأسد [٤٤]. فيما انضم إليهم ملك صقلية، فضلاً عن دون أوستريا (النمسا)، وبرغنديا، وكونت الفلاندر. وكبار البارونات والفرسان المشهورين [٤٥].

في الطريق نحو الشام، غرق الامبراطور الألماني، في نهر صغير، بين طرسوس وأذنة، وتفرق جيشه، وعاد أدراجه، وإستكملت باقي الجيوش المسير، فضربت حصاراً حول عكا، دام سنتين، ما بين آب / أغسطس ١١٨٩ - وتموز / يوليو ١١٩١ م. ولما لم يستطيع صلاح الدين إنقاذ المدينة، قبل المفاوضة، وطالب الفرنجة بإعادة مملكة بيت المقدس إلى حدودها، ثمناً لحامية عكا، مع إرجاع " صليب الصلبوت ". لكن حامية المدينة عقدت إتفاقاً مع مونتفرات، تخرج به سالمة من عكا، مقابل مائتي ألف دينار، وتحرير ألفين وخمسمائة أسير من الفرنج، بالإضافة إلى إرجاع الصليب. فإستقلت المدينة لكن الفرنج نقضوا الهدنة، وأسروا وقتلوا من أهالي المدينة بالآلاف، في تموز / يوليو ١١٩١ م [٤٦].

استمر ريتشارد قلب الأسد في معاركه، حيث زحف على الساحل

الفلسطيني، في أواخر آب / أغسطس ١١٩١ م، واستولى على حيفا، ثم قيسارية، وبعد معركة، استولى على أرسوف.

انتهز صلاح الدين الأيوبي، فرصة وجود ريتشارد في بيروت، فهاجم يافا، في آب / أغسطس ١١٩٢ م، لكن الهجوم فشل، وانتهت المفاوضات بين الطرفين بما عرف بصلح الرملة، في ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ/٢ أيلول / سبتمبر ١١٩٢م. وبموجبه يكون للصليبين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا، بما فيها حيفا، وقيسارية، وأرسوف. وتكون عسقلان للمسلمين، ويجرى اقتسام اللد والرملة مناصفة بين الطرفين، واشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلية في الصلح، فيما اشترط " الصليبيون " دخول صاحب إنطاكية وطرابلس فيه.

أما الأماكن المقدسة في القدس، فقد نص الإتفاق على منح الفرنج حرية الحج إلى القبر المقدس، دون مطالبتهم بأي ضريبة، على أن يكونوا في جماعات محدودة. ومدة الهدنة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، تنتهي في آخر سنة ١١٩٥ م [٤٧].

بعد انقضاء الحملة " الصليبية " الثالثة، أفلت زمام الحملات من أيد البابوية، وصارت من اختصاص السلطات المدنية، تتولى تنظيمها، على أساس ما وضعته من نظام للضرائب [٤٨].

إثر وفاة صلاح الدين في آذار / مارس ١١٩٣ م، جهز الفرنجة عدداً من الحملات، وجهت إلى القسطنطينية، مصر، وتونس. الحملات التي وجهت إلى مصر، كانت تأمل في أن تبلغ

البحر الأحمر، وتسهم في النشاط التجاري العامر في المحيط الهندي، على افتراض أن احتلال دمياط، أو الإسكندرية مثلا، قد يمكّن من استبدال القدس بإحداهما [٤٩].

الحملة الرابعة:

امتدت من ٥٩٩/٦٠١هـ - ١٢٠٢/١٢٠٤ م، وهي التي انتهت بسقوط القسطنطينية في يد الصليبيين، وبإنشاء إمبراطورية لاتينية على ضفاف البسفور، لمدة قصيرة.

الحملة الخامسة:

من ٦١٤ - ٦١٨ هـ/١٢١٧ - ١٢٢١ م، نظمها جان دي بريانا على الساحل المصري، وانتهت بانخذال الفرنجة، دون أن ينالوا نصراً.

الحملة السادسة:

من ٦٢٦/٦٢٧ هـ - ١٢٢٨/١٢٢٩ م، قام بها الامبراطور الألماني، فريدريك الثاني، وانتهت بعقد إتفاق بين الامبراطور، والسلطان الأيوبي، الكامل.

الحملة السابعة:

امتدت ما بين ٦٤٦ - ٦٥٢هـ/١٢٤٨ - ١٢٥٤ م، قام بها لويس التاسع، ملك فرنسا، مهاجماً سواحل مصر، وانتهت بهزيمة الفرنجة، وأسر مليكهم.

الحملة الثامنة:

شكلها لويس التاسع، واتجه بها صوب تونس في سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠

م، طمعاً في أن يحمل أميرها على إعتناق الديانة النصرانية، وانتهت هذه الحملة بموت الملك الفرنسي [٥٠].

بعد وفاة صلاح الدين، كان المسلمون قد فقدوا روح الجهاد، إلى حد كبير، وأضاعوا الزعامة والممتلكات الموحدة، فقد انقسمت سورية بين إبنى صلاح الدين، على أن الملك العادل، شقيق صلاح الدين، أحرز، بعد ذلك بأمر قصير، السيادة على مصر، وعلى جزء كبير من سورية.

ظل العادل، طيلة ولايته (١١٩٩ - ١٢١٨ م)، يحافظ على صلاته مع الإفرنج، بهدف تحقيق السلام، وتنمية الصلات التجارية مع الإيطاليين.

نشأت، بعد العادل، أسر أيوبية عدة، تولت الحكم في مصر، دمشق، والعراق، وظهرت منها فروع أخرى في حمص، وحماة، واليمن، وفي خلال الإضطرابات التي نشبت ما بين فروع هذه السلالة، أخذت المدن التي

احتلها صلاح الدين، نظير بيروت، وصفد، وطبرية، بل القدس نفسها (١٢٢٩ م)، تعود تباعاً إلى أيدي الإفرنج. فقد تخلى الملك الكامل إبن العادل عن القدس، لفردريك الثانى، ملك صقلية، بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات، تعهد فيها فردريك، بأن يقدم العون للكامل على أعدائه، وجلهم من الأيوبيين. لكن الملك الصالح، نجم الدين، ابن أخي الكامل، عمد، سنة ١٢٤٢ م، إلى استخدام مفرزة من أتراك خوارزم، الذين أخرجهم جنكيز خان من موطنهم، في آسيا الصغرى، ليعيد المدينة إلى حوزة الإسلام، على أنه لم يكن بوسع الإفرنج، أن يستغلوا هذا التفسخ،

لأن الشقاق كان قد دب، أيضاً، في صفوفهم، فاشتدت المنافسة بين أهل جنوى، وأهل البندقية، واستحكم التحاسد بين الفرسان الهيكليين، والفرسان الاسبتاريين، فنشب النزاع بين زعمائهم، ولم يكن حصول أحد الجانبين في هذه الخصومات على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر بأغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض الفرنجة ضد مسلمين آخرين [٥١].

أوضاع فلسطين إبان حروب الفرنجة:

أولاً: المقاومة:

لم يكن سكان الأرياف من المسلمين جنوداً، ولا يجيدون مهنة القتال. وكانت مقاومتهم تأخذ شكل تمردات محدودة المدى، تتمثل في الرفض، والإنتفاض، عند أي فرصة من فرص الضعف.

وبالرغم من أن أشكال هذه المقاومة، كانت فردية، إلا أن كثرتها وشدتها، كان ذا تأثير كبير، مما دعا الفرنجة إلى إنشاء فرقة الداوية العسكرية، سنة ١١١٨ م، وتحول فرقة الإسبتارية، إلى مؤسسة عسكرية، هدفها حماية الحجاج، وتطهير الطريق إلى بيت المقدس من " قطاع الطرق "!.

على أن هذه المقاومة، رغم أثرها فإنها لم تكن خطرة، وما كان ممكناً كان أن تكون حاسمة، لأنها:

١ - كانت فردية، متفرقةالزمان والمكان، تفتقر للمؤسسات الشعبية.

٢ - بالرغم من منطلقها الديني الواضح، فإنها تضطر للمهادنة

أحياناً، وإلى الهجرة هرباً، أحياناً أُخرى.

٣ - كانت محدودة في المواقع التي تتكاثف فيها القرى المسلمة، فلم تكن تؤثر على مراكز القوى الأساسية للفرنج في المدن والحصون.

٤ - لم تكن تتلقى المعونة من القوى الإسلامية المحيطة، وإنما تنتظر أن تنتصر هذه القوي في بعض المعارك لتنتهز الفرصة للتحرك. وإن ساعد المصريون في عسقلان، وأصحاب الشام هذه الجماعات، لأسباب سياسية، أثناء فترات الأزمات بينهم وبين الفرنج [٥٢].

ثانياً: إقتصادياً:

احتفظ الفرنجة بالطبقة الريفية في فلسطين، وكان فيها، إلى جانب المسلمين، قلة فرنجية المحدودة في البساتين، والمزارع، وحول المدن، مع نسبة مسيحية محلية كبيرة، وبخاصة حول القدس، والناصرة، وبيت لحم. لهذا كان طبيعياً ألاّ يؤثر الاحتلال الفرنجي في شئ من الإنتاج الزراعي، الصناعي في البلاد، إلا فيما يتعلق بالعلاقة مع الإقطاعين الفرنج، بدلاً من المتقبلين(الملتزمين[*]) من المسلمين، وإلا فيما يتعلق بمقدار الجزء المخصص للإقطاعي، ولم يهمل الفرنجة الأرض الزراعية، التي هجرها أهلها إلى الشام وإلى مصر.

خسرت البلاد جزءاً من الصنَّاع المسلمين، فيما زاد الفرنجة صناعة قصب السكر والسروج، وإصلاح الأسلحة الحديدية، بسبب الحاجات الحربية، واستغلوا موارد البلاد الزراعية، وصناعها التقليديين في صناعة الحرير، والقطن، ونسجها، كموارد تجارية ثمينة، ونقلت إلى

أوروبا عن طريق ضياع الشام.

عرف الريف وضياع المدن في فلسطين، فترة من الهدوء، خلال العهد الفرنجي، سمحتا دون شك، بالازدهار، بسبب غياب مخاطر البدو، ونكبات الحروب [٥٣].

ثالثاً: دينياً:

أذن، الفرنجة، ببناء عد قليل من المساجد للمسلمين، فيما اضطهدو اليهود. ويذكر أنه أثناء الإستيلاء على بيت المقدس، تجمع عدد كبير من اليهود، داخل معبدهم، فعمد الفرنجة إلى اشعال النار في المعبد وحرق كل من فيه على أن حملات الفرنجة ألحقت أضرارًا كثيرة، بفلسطين، والمشرق العربي عامة، لعل أبرزها: **أولاً الناحية الإقتصادية** [٥٤]:

١ - عانت الزراعة من التدهور، وبرز النظام العسكرى، وكان الفلاحون ملزمين بدفع الضرائب للفرنجة، كما ان العمليات العسكرية، بين كل من: الصليبيين " والمسلمين، أثرت سلبيًا على الزراعة في مصر. أما الشام، فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادى حتى عهد السلطان الضاهر بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م)، عانت من نقص الإنتاج الزراعي، وتعرضت مناطق عدة لخطر المجاعة أكثر من مرة.

٢ - أما بالنسبة للتجارة، فحتى بداية حروب الفرنجة، كانت التجارة بين الشرق والغرب تسير في اتجاه واحد تقريباً، لصالح الشرق، وبعد نجاح الحملة الأولى ترتب على ذلك أن كل موانئ الساحل الشرقي للبحر

المتوسط صارت تحت سيطرة أوروبا حتي سنة ١١٨٧ م، وتأسست الأحياء التجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون، مما أدى إلى تعاظم النفوذ الإيطالي، ثم الأوروبي في التجارة العالمية على حساب التجار المسلمين [٥٥].

ثانياً: اجتماعياً [٥٦]:

١ - تنوعت عناصر السكان، وتعددت دياناتهم ومذاهبهم، فضلاً عن الإختلال الديمغرافي، بسبب هجرة أعداد كبيرة من أهالي الشام إلى مصر.

٢ - عمليات التفريغ السكانية، والإحلال السكاني، أي زرع مستوطنين جدد.

٣ - عانى المسيحيون المحليون، معاملة سيئة في المناطق " الصليبية، فقد اعتبرهم الفرنجة منشقين، وخارجين عن الدين المسيحى.

٤ - سببت المنازعات والصراعات المسلحة مصدر إضطراب أمني، أدى إلى ظهور اللصوص، وقطاع الطرق.

٥ - كان للحروب الصليبية تأثير " سلبي ملحوظ " على القيم والأخلاق في العالم العربي.

٦ - إنتشرت الصوفية الجاهلة من الدروايش، وأتباعهم الذين رددوا الخرافات، وأنباء معجزات الدروايش.

٧ - آثر بعض المسلمين، أن يرتدوا عن دينهم، وأن يعتنقوا

المسيحية، خوفاً على حياتهم.

ثالثاً: ثقافياً:

صار النشاط الثقافي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي موجهاً نحو الحفاظ على التراث الفكري المجيد أكثر منه نحو الإبداع والتجديد كما كانت حركة التدوين التاريخي مزدهرة وانتشار الموسوعات والمعاجم، التي جمعت مفردات اللغة العربية، مثل: " لسان العرب "، لابن منظور،
و " القاموس المحيط "، للفيروز أبادي، رغبة في الحفاظ على الذات الحضارية.

كذلك ظهرت " النبويات " وهي قصائد مطوَّلة، كتبت لغرض الإستغاثة بالرسول، والتوسل إليه برفع المعاناة، كما تجلت هذه الظاهرة في مجال القصص الشعبي (٥٧).

استنتاجات:

ما كان لحملات الفرنجة أن تمر دون أن:

- تعكس أطماع الغربيين في المشرق العربي، ولم يكن الدين سوي مجرد مظلة، ليس إلا، وإن كان الإتشاح بالدين أمراً موغلاً في القدم، فإنه لم ينته بعد، ويبدو ذلك جلياً في عودة صيغة " الحروب الصليبية "، في خطابات الرئيس الأمريكي، جورج بوش، وسيلفيو برلسكوني، رئيس وزراء إيطاليا الحالي.

- إنكشف هدف هذه الحملات الإستيطاني، الإحلالي، ولعلها كانت

أحد مصادر الإلهام، للتجربة الصهيونية العاصرة.

- شكلت خلافات الحكام المسلمين، نقطة ضعف، استغلها الفرنجة، ببراعة فإثر سقوط القدس، في الحملة الأولى، وقع الفرنجة بين فكّى حاكم القاهرة من جهة وحاكم الموصل من جهة أخرى، ولكن خلافهما حال دون طرد الفرنجة من القدس، كما وأن الخلافات التي استبدت بالسلاجقة، حالت دون وصول الإمدادات إلى القدس.

- أدار العرب ظهرهم لسلاح الوحدة، التي تمت على يدي صلاح الدين الأيوبي، فبعد وفاته، توزعت الإمارات في الدولة الأيوبيية، بين أولاده، وأحفاده، واتسعت شقة الخلافات بينهم، حتى إنهارت هذه الدولة.

- ارتبط الأمن القومي في كل من مصر والشام، ارتباطاً وثيقاً، ولا يزال، فغدا كل قطر منهما خط الدفاع الأول والثانى، وعمقه الإستراتيجى

obeikandl.com

مراجع الفصل السادس عشر

(١) د. عبد العظيم رمضان، **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٣٠٦.
(٢) د. قاسم عبده قاسم، **الخلفية الأيديولوجية للحروف الصليبية**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩، ص ١٤ - ١٥.
(٣) محمد ماهر حمادة، **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٨٦، ص ١٧ - ١٨.
(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٨.
(٥) قاسم، **مصدر سبق ذكره** عن: Russell, The Just war, P32. Rundage, Holy war, P 104.
(٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠.
(٧) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٨) نيكيتا إيليسيف، **الشرق الإسلامي في العصر الوسيط**، ترجمة منصور أبو الحسن، بيروت، دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦، ص ٣٨٢.
(٩) ول ديورانت، **قصة الحضارة - عصر الإيمان**، ترجمة محمد بدران، القاهرة، مكتبة الأسرة، المجلد الثامن، ٢٠٠١، ص ١٥ - ١٦.
(١٠) **المصدر نفسه**، ص ١٦.
(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٦ - ١٧.
(*) هذا زعم باطل، والدليل رسالة ثيودوسيوس، بطريق بيت المقدس، سنة ٨٦٩ م إلى زميله إجناتيوس، بطريق القسطنطينية، وفيها يمتدح الأول المسلمين، ويثنى على قلوبهم الرحيمة، وعلى تسامحهم المطلق، ويقول إنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس، ولم يتدخلوا في شؤونهم الخاصة، حيث ذكر في رسالته " إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت ".
- راجع: د. عبد العظيم رمضان " الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية "، دار المعارف ١٩٨٣، ص ٣١١.
(١٢) د. قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية، الأيديولوجية، الدوافع، النتائج**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ٢٠٠١، ص ٥٦.
(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٦١.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٦٣.
(١٥) **المصدر نفسه** ص ٦٧.

obeikandl.com

(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي من أواسط القرن الرابع الهجري، العاشر
الميلادي / إلى أواسط القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، ٣٦٤.
(١٧) قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨.
(١٨) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨٤.
(١٩) د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة د. كمال اليازجي، ج٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩ م، ص ٢٢٣.
(٢٠) قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٨ - ٩٩.
(٢١) **المصدر نفسه**، ص ١٠١ - ١٠٢.
(٢٢) رمضان، **مصدر سبق ذكره** ص ٣٠٧.
(*) لم يبعث مسيحيو الشرق أي استغاثة إلى الغرب، ليرد عليهم، ويحارب من أجلهم، بل ثمة ما يؤكد رعايتهم، وعدم المساس بهم، وخاصة في فلسطين، في الفترة السلجوقية، فقد استرد أتسز، مثلاً، القدس سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦م، من الفاطميين، بعد حصار استمر شهورًا عديدة، فتعرض المسلمون فيها لمذبحة، ونجا المسيحيون الذين اعتصموا داخل سور حيهم. ثم لما عاد خاسرًا من مصر، وطردته القدس، دخلها بمذبحة أشد فتكًا، فلم يمس المسيحيين.
- الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي من أواسط القرن الرابع الهجري الميلادي إلى أواسط القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، ص ٣٦٥).
(٢٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦٥.
(٢٤) رمضان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١٢.
(٢٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره** ص ٣٦٦.
(٢٦) حمادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٧ - ٩٨.
(٢٧) د. قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٤.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١١٥.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ١٢٠ - ١٢١.
(٣٠) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
(٣٢) رفيق التميمي، **الحروب الصليبية**، القدس، مطبعة اللواء، ط١، ١٩٤٥، ص ٤٧.
(٣٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦٨.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٢.

(٣٦) التميمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤.
(٣٧) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٤.
(٣٨) قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٦.
(٣٩) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٧.
(٤١) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٦.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٣٦.
(٤٣) التميمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤.
(٤٤) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
(٤٥) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤١١.
(٤٦) **المصدر نفسه**، ص ٤١٢ - ٤١٣.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ٤١٤.
(٤٨) **المصدر نفسه**، ص ٤١٥.
(٤٩) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٢.
(٥٠) التميمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٥.
(٥١) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.
(٥٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٠ - ٣٨١.
(*) الملتزمون: هم الأشخاص الذين يتعهدون للحاكم بجمع الضرائب من الفلاحين، فيما يلزم أولئك الأشخاص بدفع مبلغ معين مما يجمعون إلى خزينة الحاكم.
(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٧٩ - ٤٨٠.
(٥٤) لمزيد من التفاصيل انظر: د. قاسم ماهية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٧ - ٢١٦.
(٥٥) **المصدر نفسه**، ص ٢١٣.
(٥٦) لمزيد من التفاصيل، انظر: **المصدر نفسه**، ص ١٩٢ - ٢٠٧.
(٥٧) قاسم، ماهية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٣.

* * *

obeikandl.com